في اللغة والحضارة (1)

الشيخ عبدالحميد بن باديس

العرب في القرآن



تانيت

■ في اللغة والحضارة ــــــــــ (1)

العرب في القرآن

(يليه)

محمد ﷺ رجل القومية العربية

للشيخ عبدالحميد بن باديس

تانيت

في اللغة والحضارة (1)

❖❖

الشيخ عبدالحميد بن باديس

❖❖

1- العرب في القرآن

2- محمد ﷺ رجل القومية العربية

❖❖

منشورات



تانيت

(الدار البيضاء – تونس – طرابلس)

الطبعة الأولى – 2009

❖❖

العرب في القرآن

«الخطاب الذي ارتجله الأستاذ عبدالحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، في اجتماعها العام بنادي الترقّي لهذه السنة [1939] وموضوعه «العرب في القرآن»، وقد حافظنا على معانيه وعلى الكثير من ألفاظه، وهيهات هيهات لما نودّ من نقله للقراء بألفاظه وجمله، فإنه خطاب عظيم في موضوع خطير لا يضطلع به غير الأستاذ في علمه بفنون القرآن وغوصه على مغازيه البعيدة ونفاذه في معانيه العالية. وعلى كلّ، فإننا نرجو أننا قدّمنا الموضوع للقراء كامل المعاني، وحسبنا هذا».[1]

1- عن (الشهاب: ج1 م15، محرم 1358 هـ فيفري 1939م)، (الشهاب: ج 2 م 15، صفر 1358 هـ مارس 1939م)، (الشهاب: ج3 م15، ربيع الأول 1358 هـ افريل1939م)

(1)

حق على كل من يدين بالإسلام، ويهتدي بهدي القرآن، أن يعتني بتاريخ العرب ومدنيتهم وما كان من دولهم وخصائصهم قبل الإسلام، ذلك لارتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام ولعناية القرآن بهم، ولاختيار الله لهم لتبليغ دين الإسلام، وما فيه من آداب وحكم وفضائل إلى أمم الأرض.

فأما أنهم قد ارتبط تاريخهم بالإسلام، فلأن العرب هُيئوا تاريخيًا لأجل أن ينهضوا بأعباء هذه الرسالة الإسلامية العالمية، ولأن الله الحكم العدل الذي يضع الأشياء في مواضعها بحكمة، ويأمرنا أن ننزل الناس منازلهم في شريعته – ما كان ليجعل هذه الرسالة العظيمة لغير أمة عظيمة، إذ لا ينهض بالجليل من الأعمال إلا الجليل من الأمم والرجال، ولا يقوم بالعظائم إلا العظام من الناس.

وأما عناية القرآن بالعرب فلأجل تربيتهم، لأنهم هم الذين هيئوا لتبليغ الرسالة، فيجب أن يأخذوا حظهم كاملاً من التربية قبل الناس كلهم، ولهذا نجد كثيراً من الآيات القرآنية في مراميها البعيدة إصلاحاً لحال العرب، وتطهيراً لمجتمعهم، وإثارة لمعاني الشرف في نفوسهم، ومن هذا الباب الآيات التي يذكّر بها العرب أن القرآن أنزل بلسانهم، مثل ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف، 3]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف، 2]، والذين يعقلون القرآن قبل الناس كلهم هم العرب، ومن أول القصد إلى العرب، والعناية بلسانهم، وتنبيههم إلى أن القرآن أنزل بلسانهم دون جميع الألسنة – جلباً لهم حتى يعلموا أنه أنزل لهم وفيهم قبل الناس كلّهم.

إنّ العرب قوم يعتزون بقوميتهم، وهم قوم ذوو

عزّة وإباء – خصوصاً في الجاهلية – فكان من حكمة القرآن أن يجلب نافرهم، ويقرّب بعيدهم، بأنّ هذا القرآن أنزل بلسانهم.

فمن الطبيعة العربية الخالصة أنها لا تخضع للأجنبي في شيء لا في لغتها ولا في شيء من مقوماتها.

ومن هذا الباب توسعة الله في قراءة القرآن على سبعة أحرف، وهي اللهجات التي تجتمع على صميم العربية وتختلف في غير ذلك؛ وسع عليهم في ذلك لتشعر كل قبيلة أن هذا القرآن قرآنها، لأن اللسان الذي نزل به هو لسانها. وهذا هو ما يقصده القرآن. ومن هذا الباب أيضاً إشعارهم بأن صاحب الرسالة منهم. ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة، 128].

يقول الله لنبيه وهو يعني القرآن ﴿فَاسْتَمْسِكْ

بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف، 43- 44]. والأنبياء لم يبعثوا إلا في مناسب الشرف، ومنابع القوة، ومنابت العزة، ليبنى المجد الطريف من الدين على المجد التليد من أحساب الأمة وأنسابها وشرفها وعزتها، وما كان لها من مناقب تلتئم مع أصول الدين. فقوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ يعني أنه شرف لكم. وقومه هم العرب لا محالة.

ويقول بعد ذلك ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف، 44] ليشعرهم أن عليهم من الواجبات في مقابلة هذا الشرف الذي أعطوه ما ليس على غيرهم ولا شك أن ثمن المجد غال.

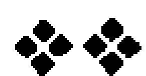
وهذا الشرط الذي ذكره الله وذكر به العرب هو شرط واجب الاعتبار والتنفيذ.

لأن الأمة التي لا تؤدي ثمن المجد لا تحافظ

عليه، ثم هي أمة لا يعتد عليها في النهوض بنفسها ولا بغيرها. وإنما ذكرهم الله بذلك لينهضوا بالأمم على ذلك الأساس وهو إحياء الشرف الإنساني في نفوسها وليعاملوها على ذلك الأساس بالعدل والرحمة والتكريم. وما ذكر القرآن العرب بتكريم بني آدم وخلقهم في أحسن تقويم إلا ليعاملوهم على هذه القاعدة التي وضعها الخالق. وأن أعداء البشرية اليوم وقبل اليوم يعمدون إلى قتل الشرف من النفوس ليستذلّوا من هذا النوع ما أعز الله ويهينوا منه ما كرم الله.

والخلاصة أن عناية القرآن بإحياء الشرف في نفوس العرب ضرورية لإعدادهم لما هيئوا له من سياسة البشر. وبهذا نستعين على فهم السرّ والحكمة في اختيار الله للعرب للنهوض بهذه الرسالة الإسلامية العالمية، واصطفائه إياهم لإنقاذ

العالم مما كان فيه من شر وباطل، وهذا السر هو أنهم ما كانوا عليه من شرف النفس وعزتها والاعتداد بها هو الذي هيأهم لذلك ولو كانوا أذلاء لما تهيأوا لذلك العمل العظيم.



وأما العرب فإنهم اختيروا لوظيفة عالميّة عامة لما فيهم من شرف متأصل، واستعداد كامل، وصفات مهيأة. ولهذا كان منبع الرسالة بمكة، وشأنها عند العرب هو شأنها، فهم مجمعون على تقديسها، ولأنها في وسط الجزيرة وصميمها، ووسط الجزيرة بعيد كل البعد عن المؤثرات التي يجلبها الاحتكاك بالأجانب والاختلاط بهم، وكل أطراف الجزيرة لم تخل من لوثة في الطباع وعجمة في الألسنة جاءت من الاختلاط بالأجنبي. ولا أضر على مقومات الأمم من العروق الدسّاسة. فاليمن دخلتها

الدخائل الأجنبية من الحبشة والفرس على طباع أهلها وألسنتهم، والشام ومشارفه كانت مشرفة على الاستعجام، والعراق والجزيرة لم يسلما من التأثر بالطباع الفارسية، فكانت هذه الأطراف تنطوي على عروبة مزعزعة المقومات، ولم يحافظ على الطبع العربي الصميم، إلا صميم الجزيرة، ومنه مكة التي ظهر فيها الإسلام، وهذا الوسط وإن كان عريقاً في الصفات التي تسمى العصر لأجلها جاهلياً. ولكنه بعيداً عن الذلّ الذي يقتل العزة والشرف من النفوس، والجاهل يمكن أن تعلمه، والجافي يمكن أن تهذّبه. ولكن الذليل الذي نشأ على الذلّ يعسر أو يتعذر أن تغرس في نفسه الذليلة المهينة عزة وإباء وشهامة تلحقه بالرجال.

هذا توجيه موجز مقرب لاختيار الله تعالى العرب للنهوض بالرسالة العامة.

وشيء آخر يرتبط بهذا وهو أن الله كما اختار العرب للنهوض بالعالم كذلك اختار لسانهم ليكون لسان هذه الرسالة وترجمان هذه النهضة. ولا عجب في هذا، فاللسان الذي اتسع للوحي الإلهي لا يضيق أبدا بهذه النهضة العالمية مهما اتسعت آفاقها وزخرت علومها.

(2)

أيها الإخوان

جعلنا عنوان الخطاب «العرب في القرآن»، وقلنا في أول كلمة منه أن العناية بالعرب حق على كل مسلم لارتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام. فما هو حظ العرب من القرآن من الناحية التاريخية بعد أن سمعتم هذه التوجيهات العامة؟

العرب مظلومون في التاريخ، فإن الناس يعتقدون ويعرفون أن «العرب كانوا همجاً لا

يصلحون لدنيا ولا دين حتى جاء الإسلام فاهتدوا به فأخرجهم من الظلمات إلى النور».

هكذا يتخيل الناس العرب بهذه الصورة المشوّهة. ويزيد هذا التخيل رسوخاً ما هو مستفيض في آيات القرآن من تقبيح ما كان عليه العرب ليحذرنا من جاهلية أخرى بعد جاهليتهم.

والحقيقة التي يجب أن أذيعها في هذا الموقف هي أن القرآن وحده هو الذي أنصف العرب. والناس بعد نزول القرآن قصروا في نظرتهم التاريخية إلى العرب، فنشأ ذلك التخيّل الجائر عن القصد.

والتاريخ يجب أن لا ينظر من جهة واحدة بل ينظر من جهات متعددة. وفي العرب نواح تجتبى، ونواح تجتنب، وجهات تذم وتقبح، وجهات يثنى عليها وتمدح. وهذه هي طريقة القرآن بعينها. فهو يعيب من العرب رذائلهم النفسية كالوثنية،

ونقائصهم الفعلية كالقسوة والقتل، وينوه بصفاتهم الإنسانية التي شادوا بها مدنياتهم السالفة واستحقوا بها النهوض بمدنية المدنيات.

ولنذكر عاداً فهي أمّة عربية ذات تاريخ قديم، ومدنية باذخة، ذكرها القرآن فذكرها بالقوة والصولة وعزة الجانب، ونعى عليها الصفات الذميمة التي تنشأ عن القوة، قال تعالى ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت، 15].

فالنظرة التاريخية المجردة في هذه الآية، وفي ما ورد في موضوعها، ترينا أن عاداً بلغت من القوة والعظمة مبلغاً لم تبلغه أمة من أمم الأرض في زمنها. حتى إن الله جل شأنه لم يتحد قولهم ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ إلا بقوته الإلهية التي يذعن إليها كل

مخلوق، ولو كانت في أمم الأرض إذ ذاك أمة أقوى منهم لكان الأبلغ أن يتحداهم بها. وأن أمة تقول هذه الكلمة بحالها أو مقالها لهي أمة معتدة بقوتها وعظمتها.

ومن هذه الآية وحدها نستفيد أن عاداً كانت أشد الأمم قوة، وأنها ما بلغت هذه الدرجة من القوة إلا بمؤهلات جنسية طبيعية للملك وتعمير الأرض، وأن تلك المؤهلات فيها وفي غيرها من شعوب العرب هي التي أعدتهم للنهوض بالرسالة الإلهية، وأن القرآن لا ينكر عليهم هذه المؤهلات، وإنما ينكر عليهم لوازمها، ولا ينكر عليهم القوة والعظمة، وإنما ينكر عليهم أن يجعلوها ذرائع للباطل والبغي ومحادة الله، بدليل قوله لهذه الأمة ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود، 52].

فهو يضمن لهم أنهم إن أمنوا وعملوا

الصالحات يزيد قوتهم تمكينا وبقاء. ومحال أن ينكر القرآن على الناس القوة وهو الداعي إليها والمنفر من الضعف، وإنما شرع القرآن بجنب الدعوة إلى القوة أن تكون للحق وللخير وللرحمة والعدل. وكذلك قوله تعالى ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء، 128 - 131]. فإن هذه الآية - زيادة عن إفادتها لمعنى ما قدمناه - تكشف لنا نواحي تاريخ هذه الأمة العربية ومبلغ مدنيتها وتعميرها. فهي تدل على أنهم كانوا بصراء بعلم تخطيط المدن والأبنية. وهو علم لا يستحكم إلا باستحكام الحضارة في الأمة ومأخذ هذا من قوله ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾.

والآية في قوله ﴿آيَة﴾ هي بناء شامخ يدل على قوتهم، أو هي آية هادية للسائرين، وهي على كل

حال بناء عظيم يدل على عظمتهم وقوتهم، وما زالت عظمة البناء تدل على عظمة الباني، ولم ينكر نبيهم نفس البناء الذي هو مظهر القوة. وإنما أنكر عليهم الغاية المقصودة لهم من ذلك البناء الشامخ. فمحط الإنكار قوله ﴿تَعْبَثُونَ﴾ ولا شك أن كل بناء شامخ لا يكون لغاية شريفة محمودة فهو عبث ولهو وباطل.

والمصانع يقول المفسرون أنها مجاري المياه أو هي القصور، وعلى القولين فهي دليل على معرفتهم بفن التعمير علماً وعملاً وبلوغهم فيه مبلغاً عظيماً. فهي من شواهدنا على ما سقنا الحديث إليه.

ولكن ليت شعري ما الذي صرف المفسرين اللفظيين عن معنى المصنع اللفظي الاشتقاقي. والذي أفهمه ولا أعدل عنه هو أن المصانع جمع

مصنع من الصنع كالمعامل من العمل، وأنها مصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران. وهل كثير على أمة توصف بما وصفت به في الآية – أن تكون لها مصانع بمعناها الحرفي عندنا؟ بلى، وأن المصانع لأول لازم من لوازم العمران وأول نتيجة من نتائجه.

ولا أغرب من تفسير هؤلاء المفسرين للمصانع إلا تفسير بعضهم للسائحين والسائحات بالصائمين والصائمات. والحق أن السائحين هم الرحّالون ورواد الإطلاع والاكتشاف والاعتبار، والقرآن الذي يحث على السير في الأرض، والنظر في آثار الأمم الخالية، حقيق بأن يحشر السائحين في زمرة العابدين والحامدين والراكعين والساجدين، فربما كانت فائدة السياحة أتم وأعم من فائدة بعض الركوع والسجود.

ولا يقولن قائل: إذا كانت المصانع ما فهمتم فلماذا يقبحها لهم وينكرها عليهم؟ فإنه لم ينكرها عليهم لذاتها، وإنما أنكر عليهم غاياتها وثمراتها، فإن المصانع التي تشيد على القسوة لا تحمد في مبدأ ولا غاية. وأي عاقل يرتاب في أن المصانع اليوم هي أدوات عذاب لا رحمة ووسائل تدمير لا تعمير، فهل يحمدها على عمومها، وإن كانت دلائل حضارة ومدنية؟

ومن محامد المصانع أن تشاد لنفع البشر ولرحمتهم، ومن لوازم ذلك أن تراعى فيها حقوق العامل على أساس أنه إنسان لا آلة.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ لا بد لكل أمة تسود وتقوى من بطش، ولكن البطش فيه ما هو حق بأن يكون انتصافاً وقصاصاً وإقامة لقسطاس العدل بين الناس، وفيه ما هو بطش الجبّارين.

والجبّار هو الذي يجبرك على أن تعمل بإرادته لا بإرادتك، فبطشه إنما يكون انتقاماً لكبريائه وجبروته، وإرضاء لظلمه وعتوه، وتنفيذاً لإرادته الجائرة التي لا تبنى على شورى، وإنما تبنى على التشهي وهوى النفس. لذلك لم ينقم منهم البطش، لأنه بطش، وإنما نقم منهم بطش الجبابرة الذي كله ظلم.

وفي القرآن ما هو كالتتمة لبحثنا عن حضارة العرب، وكالعلامة لحضارة عاد بعينها، وهي حكاية عاد إرم ذات العماد.

فهذا الوصف البليغ الذي نقرؤه في سورة الفجر صريح بألفاظه ومعانيه في أنه وصف لحضارة عمرانية لا نظير لها. فالعماد لا تكون إلا في القصور والأبنية الباذخة والمدن المخطّطة على نظام محكم، وقد قال تعالى، وهو العالم بكل شيء، أنه

﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ [الفجر، 8]، ومدينة هذا وصفها لا تشيدها إلا أمة لا نظير لها في القوة.

وآثار الحضارة يتبع بعضها بعضا في الضخامة والعظم، والوصف القرآني لها وإن سبق للاتعاظ بعاقبتهم يدل الباحث التاريخي على أنهم بلغوا في الحضارة غاية لا وراءها، وهم أمة عربية، فهذه المدينة شيدت في جزيرة العرب لا محالة وأن الأقرب في التذكير بهم والاتعاظ بمصيرهم أن تكون الرؤية في قوله تعالى ﴿ألم تر﴾ علميّة لأن التذكير عام لمن تتيسر له رؤية العين ولمن لا تتيسر له، ولو ائتمرت الأمم الإسلامية بأوامر القرآن لنشأ فيها رواد يرودون الجزيرة ويجوبون مجاهلها، ولو فعلوا لأمكن أن يعثروا على آثار هذه المدينة في أرض عاد وهي معروفة، ويجمعوا بين الرؤية البصرية والرؤية العلميّة، وبين العلم والاتعاظ. وإننا لا نعبأ في مقام

البحث العلمي بما حفّ هذه الحكاية من أساطير ولا بما وقع فيه شيخ المؤرخين ابن خلدون حين تعرض لنقض تلك الأساطير.

(3)

وأمة أخرى من الأمم العربية وهي ثمود، وهي أمة عربية نلعنها بلعن القرآن لها، ولكننا نذكرها بما ذكرها به القرآن من قوة وتعمير وحضارة، فصالح رسول هذه الأمة يقول في دعوتها إلى الله وتعريفها بنعمه ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود،61]، فأمة أي أمة لا تعمر الأرض إلا إذا ملكت وسائل التعمير، وهي كثيرة، ومجموعها هو ما نسميه الحضارة أو المدنية.

وقد كشفت لنا عن هذا الاستعمار الثمودي عدة آيات بليغة الوصف، ولكن أبلغها وصفا

وأدقها تصويراً قوله تعالى ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَا هُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء، 145-150].

أما المغزى الذي سيقت هذه الآية لأجله فهو النفي عليهم. كيف يستعينون بنعم الله التي يسّرها لهم على الكفر به وإنذارهم أن الكفر به وبمؤتيها سيكون سبباً في زوالها، وفي ضمن هذا عرفنا حالتهم التي كانوا عليها في تعمير الأرض. وهي حالة أمة بلغت النهاية في الحضارة المادية وفنونها من زرع الأرض وتلوينها بأصناف الشجر منظمة، وتقسيم المياه على تلك الغروس إلى ما يستلزمها، كل ذلك من علم بجال الأرض وطبائعها، وأحوال الأشجار المغترسة وطبائعها، وأحوال الفصول الزمنية وأحوال الجو وأحوال التلقيح والآبار

والجني، وعلم بأصناف التمتع من مناظر ومجالس ومقامات ومآكل. ثم القيام على حفظ ذلك العمران من إفساد الأيدي السارقة، وكل هذا مما يستلزمه وصف القرآن لحالهم لأجل تذكيرهم والتذكير بهم.

وقد ذكرهم القرآن في مواضع بإتقانهم لنحت الحجر. والشجر والحجر آيتا الحضارة المبصرتان. ومن يعرف الحضارة الرومانية بهذا الوطن يعرف أنها ما قامت إلا على نحت الحجر وغرس الشجر.

وإن نحت الحجر ليستدعي حاسة فنية خاصة ويستدعي مع ذلك قوة بنائية، وقد نعتهم القرآن في نحتهم للحجر بحالة ملابسة، فوصفهم مرة بأنهم آمنون، ومرة بأنهم فرهون، والفاره هو الذي يعمل بنشاط وخفة ولا يأتيه ذلك إلا من خبرته بما يعمل، وعلمه بدقائقه واعتياده له، ومعنى هذا أن

أصول هذه الصناعة التي اشتهر بها المصريون القدماء، والرومان قد رسخت فيهم، ولكن التاريخ المنقول ظلم العرب وبخسهم حقهم كما قلت لكم في طالعة الخطاب.

هاتان أمتان من الأمم العربية أثبت القرآن حالهما، فكان لنا مصدراً تاريخياً معصوماً في إثبات حضارة الشعوب العربية التي برزت فيها الأمم.

ولننتقل الآن إلى ناحية أخرى من نواحي الجزيرة وهي اليمن التي عرفها اليونان وغيرهم، وعرفوا المدنيات التي قامت فيها، فسموها بالعربية السعيدة، وإننا إذا انتقلنا إلى هذه الناحية من الجزيرة نجد العز القدموس، والمجد الباذخ، والماضي الزاهر، لهذه الأمة التي نفتخر بالانتساب إليها، ونباهي الأمم بمدنياتها بالحق والبرهان.

وإننا في حديثنا عن اليمن لا نخرج عن شواهد

القرآن.

قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ، 15– 19].

ليس المقام مقام تبسيط في وجوه البلاغة المعجزة التي تنطوي عليها هذه الآيات، فقد استوعبت تاريخ أمة في سطور. وصورت لنا أطواراً اجتماعية

كاملة في جمل قليلة أبدع تصوير، ووصفت لنا بعض خصائص الحضارة والبداوة في جمل جامعة لا أظن غير اللسان العربي يتسع لحملها كقوله ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾، وكقوله ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾، وكقوله ﴿بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، حتى إذا وصل القارئ إلى مصير هذه الأمة التي سمع ما هاله من وصفها واجهه قوله تعالى ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾، وأدركه الغرق في لجج البلاغة الزاخرة.

اللهم إن السلامة في الساحل وأننا لا نعدو موضوعنا وهو تصور حضارة العرب مما يحكيه القرآن عنها في معرض بيان مصائرها حين كفرت بأنعم الله وبرسله.

الآيات صريحة في أن مدنية سبأ كانت مدنية زاهرة مستكملة الأدوات، ومن قرأ القرآن بعقله فهم ما نفهم من آياته، وعلم كما نعلم أن مدن

سبأ كانت عامرة بالبساتين عن يمين وشمال. فيمين من؟ وشمال من؟

إنه لا شك يمين السائر في تلك المدن أو الأراضي وشماله. ومعنى هذا أن طرق السير كانت منظمة تبعاً لتنظيم الغروس عن يمينها وشمالها. والاكتشافات الأثرية اليوم التي كان لليمن حظ ضئيل منها – وإن كان على يد غير أهلها – تشهد بأن أمم الحضارات اليمنية كانوا من أسبق الأمم إلى بناء السدود المنيعة لحصر المياه والانتفاع بها في تعمير الأرض. وإقامة السدود لا تتم بالفكر البدوي والعمل اليدوي، بل تتوقف على علوم فكرية منها الهندسة، والهندسة تتوقف ثمراتها على علوم كثيرة، وعلوم العمران كعروق البدن يمد بعضها بعضاً، فهي مترابطة متماسكة متلاحمة. فما يكون السبأيون بلغوا في الهندسة مبلغا

أقاموا به سد مأرب حتى يبلغوا في غيره من علوم العمران ذلك المبلغ.

ولكن لما كفروا بأنعم الله، واستعملوها في ما يسخطه، سلّط الله عليهم من الأسباب ما خرّب عمرانهم وأباد حضاراتهم، وذلك قوله تعالى ﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم...الخ﴾.

ويقول في وصف عمرانهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ يعني أن عمرانهم لم يكن محدوداً وإنما كان متصلاً بعضه ببعضه، فالقرى والمدن يظهر بعضها من بعضها لقربها وتلاحمها، فلا يكاد المسافر يبرح مدينة حتى تبدو له أعلام الأخرى، ولا يكون هذا إلا إذا كان العمران متصلاً، وهذا هو معنى الظهور في الآية، فهو ظهور خاص، وتقدير السير هو أن يكون منظماً ومن لوازمه أن تكون الأوقات مضبوطة

بالساعات، والطرق محدودة بالعلامات، التي تضبط المسافة.

وقوله تعالى ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ يرشدنا إلى امتداد العمران، ولا يتم العمران إلا بالأمن، ولكن فات القوم أن يحصنوا هذه المدينة الزاخرة بسياج الإيمان والشكر والفضيلة والعدل، وكل مدنية لم تحصن بهؤلاء فمصيرها إلى الخراب، والناس من قديم مفتونون بعظمة المظاهر يحسبون أنها خالدة بعظمتها باقية بذاتها، فالقرآن يذكر لنا الكثير من مصائر الأمم حتى لا نغتر بمظاهرها، وحتى نعلم أن سنة الله لا تتخلف في مدنية الآخرين كما تتخلف في الأولين.

وأما قوله تعالى ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ فإن المفسرين السطحيين يحملونه على ظاهره، وأي عاقل يطلب بُعْدَ الأسفار؟

والحقيقة أنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم وإنما هو نتيجة أعمالهم، ومن عمل عملاً يفضي إلى نتيجة لازمة، فإن العربية تعبر عن تلك النتيجة بأنها قوله، وهذا نحو من أنحاء العربية الطريفة.

ولا زال الناس – على عاميتهم – يقولون فيمن عمل عملاً يستحق عليه الضرب أو القتل: «إنه يقول اقتلني أو اضربني»، وهو لم يقل ذلك، وإنما أعماله هي التي تدعوا إلى ذلك، فالمعنى أن أعمالهم هي التي طلبت جزاءها اللازم لها المرتبط بها ارتباط اللازم بالملزوم، والدال بالمدلول فكأن ألسنتهم قالت ذلك.

ويؤيد هذا في القرآن كثير ومنه قوله تعالى ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام، 139] لأن الجزاء أثر للفعل فهو مرتبط به ولا يقولن قائل: إن القول يقع مدلوله في القلب حالا ولا كذلك العمل فقد يتأخر

جزاؤه طويلا – لأن الجزاء إذا كان محقق الوقوع يصير كأنه حاصل بالفعل، وكل عاقل يقطع بأنه إذا وقع الظلم من الظالم فقد استحق عليه الجزاء. ولا يلاحظ مسافة ما بين الظلم وجزائه.

أما المباعدة بين أسفارهم التي اقتضاها كفرهم بأنعم الله، فهي كناية عن محو العمران وخراب القرى التي كانت ظاهرة متقاربة، حتى لا يبقى منها إلا القليل فيتباعد ذلك القليل بالطبع بخراب الكثير.

وأين العمران المتلاحم الذي يرتاح فيه المسافر لضبط المسافة، وتعدد المشاهد من الخراب الذي يوحش النفس، فيزيد المسافة بعداً على بعد. وملكة سبأ وعرشها العظيم وملكها وما قصه القرآن من نبئها أعظم وأروع.

فمخبر سليمان عليه السلام يقول عنها

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل، 23] وما وصف عرش ملكة سبأ بالعظيم عند سليمان نبي الله الذي سخر له الجن والريح – إلا وهو في نفسه عظيم.

أيها الإخوان

إن قصة ملكة سبأ في القرآن لدرسا تتفجر منه ينابيع العظة والعبرة، وإرشادا إلى ما تقوم به الأمم، ولولا أن هذا الخطاب قد طال لآثرنا منها العبر، وآثرنا بها العبر، ولكن لا يفوتنا أن نختلس منها إشارات، وما عليكم بعد ذلك إلا أن تتدبروا الآية، ففيها نظام الشورى صريحاً لا مواربة فيه. وفيها أن بناء الأمم إنما يعتمد على القوة، وقد تكون فلا بد أن يسندها بأس شديد. وفيها أن الملأ هم الأشراف وأهل الرأي، وهم أعضاء المجالس الشورية، ولعلهم كانوا بالانتخاب الطبيعي أو الوراثي. وهو لا يكون

إلا في الأمم التي شبت عن طريق البداوة؛ ولعل كاتباً من كتابنا يتناول هذا البحث، بحث الانتخاب في الإسلام، ولئن استرشد القرآن في هذا الباب ليرشده.

أيها الإخوان

هذه مدنيّات ضخمة عبرت في هذه الأمة التي أهّلها الله لحمل الرسالة الإلهية إلى العالم. وهذه بعض خصائص هذه الأمة التي هيّأها للنهوض بالعالم وإنقاذه من شرور الوثنية وبنياتها، ومن ضلال العبودية بجميع أصنافها، وإن القومية العربية موضوع مترامي الأطراف، وليس من الممكن الإحاطة به في مثل هذا الخطاب. وحسبي أن أكون قد خدمتها من هذه الناحية التي هي خدمة للإسلام والقرآن.

والسلام عليكم

محمد ﷺ
رجل القومية العربية[1]

لا يستطيع أن ينفع الناس من أهمل أمر نفسه. فعناية المرء بنفسه – عقلاً وروحاً وبدناً – لازمة له ليكون ذا أثر نافع في الناس على منازلهم منه في القرب والبعد، ومثل هذا كل شعب من شعوب البشر لا يستطيع أن ينفع البشرية ما دام مهملا مشتتاً لا يهديه علم، ولا يمتنه خلق، ولا يجمعه شعور بنفسه ولا بمقومات ولا بروابطه.

وإنما ينفع المجتمع الإنساني ويؤثر في سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه فنظر إلى ماضيه وحاله

1- (الشهاب: ج3 م12، ربيع الأول 1355 هـ جوان 1936)

ومستقبله، فأخذ الأصول الثابتة من الماضي وأصلح شأنه في الحال ومد يده لبناء المستقبل يتناول من زمنه وأمم عصره ما يصلح لبنائه معرضاً عما لا حاجة له به أو ما لا يناسب شكل بنائه الذي وضعه على مقتضى ذوقه ومصلحته.

فمحمد ﷺ، وهو رسول الإنسانية كانت أو عنايته موجهة إلى قومه، وكانت دعوته على ترتيب حكيم بديع لا يمكن أن يتم إصلاح إنسانيا أو شعبيا إلا بمراعاته فكان أول دعوته ﷺ لعشيرته، لقوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ فلما نزلت صعد الصفا ثم نادى «يا صباحاه» وكانت دعوة الجاهلية إذا دعاها اجتمعت إليه عشيرته — فاجتمعت إليه قريش عن بكرة أبيها، فعمّ وخصّ فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أكنتم مصدقي». قالوا «ما جربنا عليك كذباً». قال:

«فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. يا بني كعب بن لؤي، يا بني مرة بن لؤي، يا آل عبد شمس، يا آل عبد مناف، يا آل هاشم، يا آل عبد المطلب، يا صفية، يا فاطمة، سلوني من مالي ما شئتم وأعلموا أن أوليائي يوم القيامة المتقون، فإن تكونوا يوم القيامة مع قرابتكم فذلك وأياي، لا يأتي الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على أعناقكم، فأصد بوجهي عنكم، فتقولون يا محمد فأقول هكذا – وصرف وجهه إلى الشق الآخر – غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها»، ثم وجه دعوته إلى بقية العرب في مواسم الحج وما يتصل بها من أسواقهم، ثم عمّم دعوته لقوله تعالى ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾، فكاتب ملوك الأمم وقد عمّت دعوته العرب وتهيأ أمرهم لعموم دخولهم في الإسلام، وكان ذلك أيام هدنته مع قريش قبيل فتح مكة. ثم تجد أكثر السور

المكية قد وجّه فيها الخطاب إلى قريش، وإلى العرب، وعولجت فيها مفاسدهم الاجتماعية وضلالاتهم الشركية، وما كان منهم من تحريف وتبديل لملة إبراهيم، فكان أول الإصلاح متوجهاً إليهم ومعنياً بهم حتى ينتشلوا من وهدة جهلهم وضلالهم، وسوء حالهم، وتستنير عقولهم، وتتطهر نفوسهم، وتستقيم أعمالهم، فيصلحوا لتبليغ دين الله وهدى رسوله ﷺ للأمم بالقول والعمل. ثم لأجل أن يشعروا بأن القرآن هو كتاب هداية لهم كلهم، وأن الرسول لهم كلهم، أنزل القرآن على سبعة أحرف، فعم جميع لهجاتهم، وكان النبي ﷺ يخاطبهم بتلك اللهجات وينطق بالكلمات، ومنها ما ليس من لهجة قريش، وكان في هذا ما أشعرهم بوحدتهم بالتفافهم حول مركز واحد ينتهون كلهم إليه ويشتركون فيه.

وقد نبّه على هذا المعنى قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾، فأخبره أن القرآن شرف له ولقومه، نزل بلغتهم، ونهض بهم من كبوتهم، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وهيأهم لهداية الأمم وإنقاذها من الهلاك، وقيادتها لعزها وسعادتها، وإنهم يسألون عن هذه النعمة. يقول هذا ليعملوا بالقرآن ويعلموا أن شرفه إنما هو للعالمين.

على أن العرب رشحوا لهداية الأمم التي تدين بالإسلام، وتقبل هدايته، فتتكلم بلسان الإسلام، وهو لسان العرب، فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها، ويهتدون مثلها بهدى الإسلام. علم هذا فبين أن من تكلم بلسان العرب فهو عربي، وإن لم ينحدر من سلالة العرب، فكان ذلك من عنايته بهم لتكثير عددهم لينهضوا بما

رشحوا له. بين هذا في حديث رواه بن عساكر في تاريخ بغداد بسنده عن مالك الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال «جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل - يعني النبي ﷺ - فما بال هذا - يعني الفارسي والرومي والحبشي ما يدعهم إلى نصره وهم ليسوا عرباً مثل قومه»، فقام إليه معاذ بن جبل - رضي الله عنه - فأخذه بتلابيبه (يعني ما على نحره من الثياب) ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بمقالته، فقام النبي ﷺ مغضباً يجرّ ردائه لما أعجله من الغضب حتى أتى المسجد ثم نادى «الصلاة جامعة» (ليجتمع الناس)، وقال ﷺ «أيها الناس، الرب واحد، والأب واحد، وإن الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم،

وإنما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي»، فقام معاذ فقال «فما تأمرني بهذا المنافق يا رسول الله»؟ قال «دعه إلى النار»، فكان قيس ممن ارتدّ في الردّة فقتل.

تكاد لا تخلص أمة من الأمم لعرق واحد، وتكاد لا تكون أمة من الأمم لا تتكلم بلسان واحد، فليس الذي يكون الأمة ويربط أجزاءها ويوحد شعورها ويوجهها إلى غايتها هو هبوبها من سلالة واحدة، وإنما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد، ولو وضعت أخوين شقيقين يتكلم كل واحد منهما بلسان وشهدت ما بينهما من اختلاف نظر وتباين قصد وتباعد تفكير، ثم وضعت شامياً وجزائرياً - مثلاً - ينطقان باللسان العربي ورأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب في ذلك كله، لو فعلت هذا لأدركت بالمشاهدة الفرق

العظيم بين الدم واللغة في توحيد الأمم.

فانظر بعد هذا إلى ما قرره هذا النبي الكريم، رسول الإنسانية، ورجل القومية العربية، في الحديث المتقدم، فقضى بكلمته تلك على العصبية العنصرية الضيقة المفرقة، فنبه على تساوي البشر في أنهم كلهم مخلوقون لله، فربهم واحد، وإنهم كلهم من عنصر واحد فأبوهم آدم واحد، وذكر بأخوة دين الإسلام دين الأخوة البشرية والتسامح الإنساني، ثم قرّر قاعدة عظمى من قواعد العمران والاجتماع في تكوين الأمم، ووضع للأمة العربية قانوناً دينياً اجتماعياً طبيعياً لتتسع دائرتها لجميع الأمم التي رشحت لدعوتهم إلى الإسلام بلغة الإسلام. وقد كان ذلك من أعظم ما سهل نشر الهدايا الإسلامية وتقارب عناصر البشرية وامتزاجها بعضها ببعض حتى كان ثمرة اتحادها

وتعاونها ذلك التمدن الإسلامي العربي الذي أنار العالم شرقاً وغرباً، وكان السبب في نهضة الغرب والأساس لمدنية اليوم. وبذلك أيضاً كانت الأمة العربية اليوم تجاوز السبعين مليوناً عداً لا تخلو منهم قارة من قارات المعمورة.

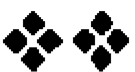
كوّنَ رسول الإنسانية ورجل القومية العربية أمته هذا التكوين المحكم العظيم ووجهها لتقوم للإسلام والبشرية بذلك العمل الجليل. فلم يكونها لتستولي على الأمم، ولكن لتنقذهم من سلطة المسؤولين باسم الملك أو باسم الدين. ولم يكونها لتستخدم الأمم في مصالحها، ولكن لتخدم الأمم في مصالحهم. ولم يكوها لتدوس كرامة الأمم وشرفها، ولكن لتنهض بهم من دركات الجهل والذل والفساد، إلى درجات العز والصلاح والكرامة. وبالجملة: لم يكوّنهم لأنفسهم بل كوّنهم للبشرية

جمعاء. فبحق قال فيهم الفيلسوف العظيم غوستاف لوبون «لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب»، نعم لأنهم فتحوا فتح هداية لا فتح استعمار، وجاءوا دعاة سعادة لا طغاة استعباد.

هذا هو رسول الإنسانية ورجل القومية العربية الذي كان له الفضل – بإذن الله – عليها، ويشهد المنصفون من غير العرب وغير المسلمين له بهذا الفضل، ويتغنى العرب غير المسلمين به. وكم دبجت أقلام الكتاب والشعراء من إخواننا نصارى العرب بالشرق من حلل البيان في الثناء عليه والإشادة بفضله.

هذا هو رسول الإنسانية ورجل الأمة العربية الذي نهتدي بهديه ونخدم القومية العربية خدمته، ونوجّهها توجيهه، ونحيا ونموت عليها، وإن جهل الجاهلون، وخدع المخادعون، واضطرب المضطربون.

وإلى أعتابه الكريمة نتقدم بهذه الكلمة في مولده الشريف الذي هو عيد الإسلام والعروبة والإنسانية كلها، عاد الله فيه باللطف والرحمة على الجميع.



ترجمة الشيخ
عبدالحميد بن باديس

ولد عبدالحميد بن باديس بمدينة قسنطينة، في يوم الإربعاء 10 ربيع الثاني 1307 هـ، الموافق 4 ديسمبر 1888م، ونشأ في أسرة عريقة معروفة بالعلم واليسار، فهو من نسل المعز بن باديس مؤسس الدولة الصنهاجية التي خلفت دولة الأغالبة على مملكة القيروان.

لقي الشيخ عبدالحميد بن باديس في كنف والده (محمد المصطفى بن مكي بن باديس) ما يلقاه عادة أول البناء من رعاية واهتمام في الأسر الكريمة، فقدمه أبوه إلى الشيخ محمد بن المداسي، أشهر

مقرئي قسنطينة، فلقنه القرآن ولما يتجاوز الثالثة عشر.

وفي عام 1903 تتلمذ على يد شيخ جليل هو حمدان بن لونيسي الذي لقنه مبادئ العلوم العربية والدينية.

وفي عام 1908 سافر إلى تونس للالتحاق بجامعة الزيتونة، وتتلمذ على أشهر مشايخها آنذاك مثل محمد النخلي القيرواني ومحمد الطاهر بن عاشور والبشير صفر، إلى أن نال شهادة «التطويع» عام 1911.

وفي عام 1913 عاد إلى قسنطينة وشرع لتوه في العمل التربوي، ثم عاد عشية الحرب العالمية الأولى إلى تونس حيث تابع تحصيله العلمي لبعض الوقت، لكنه سرعان ما انتقل إلى الحجاز بغرض الحج، وهناك تعرف على الشيخ محمد البشير

الإبراهيمي، وبلورا مع بعض الأسس الأولى للعمل الإصلاحي والدعوي في الجزائر وكما يقول الشيخ البشير الإبراهيمي فإن تلك الجلسات التي دامت ستة أشهر شهدت وضع لبنات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ومن الحجاز زار عدة بلدان في المشرق الإسلامي مثل دمشق ولبنان ثم زار مصر وهناك اتصل بالشيخ بخيت زميل الشيخ محمد عبده وحامل أفكاره الإصلاحية، واستفاد منه كثيراً.

وفي عام 1917 عاد ابن باديس إلى قسنطينة للمرة الثانية، واستأنف فيها نشاطه التربوي، فأسس مدرسة عصرية في مبنى مسجد سيدي بومعزة، ثم انتقلت بعد اشتداد الإقبال عليها إلى مبنى الجمعية الخيرية الإسلامية. ثم توسع نشاطه التعليمي في عدة مساجد في قسنطينة قبل أن يستقر به المقام في

الجامع الأخضر الذي شهد إقبال الطلبة من جميع نواحي الجزائر.

وفي عام 1925 أصدر أول جريدة له باسم «المنتقد» وكان شعارها «الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء». وكما يدل عليها اسمها فقد كانت ثورة على كل المظاهر المنحرفة في المجتمع الجزائري الذي كان يرزح تحت نير الاستعمار، بهدف تنبيه المجتمع إلى مواطن الخلل. وركزت على نقد الطرق الصوفية التي كانت تمثل الإسلام بصورة مشوهة وكانت توجه أتباعها من خلال المقولة الخطيرة «اعتقد ولا تنتقد».

وفي عام 1926 أصدر مجلة «الشهاب» بعد إيقاف «المنتقد»، وكان لها شعاران واحد إصلاحي تربوي يتضمن مقولة الإمام مالك رحمه الله «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» وثان

سياسي عملي «جميع الحقوق لمن قاموا بجميع الواجبات».. وبمثل هذه الشعارات كان الشيخ ابن باديس يرسخ المفاهيم الإصلاحية في أذهان القراء، وكان كل شعار يعكس المرحلة والطور الذي تمر به الدعوة الإصلاحية. كما ساهم الشيخ ابن باديس في إصدار العديد من الجرائد والمجلات الأخرى منها: السنة، الصراط، الشريعة والبصائر.

وفي عام 1931 تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وانتخب رئيسا لها في غيابه، فقاد الجمعية برضا الجميع؛ بل يعود له الفضل الكبير في تنوير الرأي العام وإنضاجه إلى المستوى الذي آل إليه عشية تأسيس الجمعية، حيث كان جل شيوخ الجمعية ومؤسسيها من تلاميذه بالجامع الأخضر، وإخوانه القادمين من الزيتونة والحجاز والأزهر. ففي المجال الديني كانت الجمعية تهدف إلى تطهير

الدين الإسلامي مما علق به من شوائب البدع والخرافات والعودة به إلى أصوله الأولى. وفي المجال التربوي كانت غايتها تنشئة جيل جزائري جديد، مسلح بثقافة وطنية وفكر إسلامي ليكون أهلا لإحراز النصر.

وفي عام 1935 بلغ عدد المدارس التي أسستها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 70 مدرسة تعليمية في أنحاء الوطن ويقدر عدد تلامذة هذه المدارس بحوالي 30 ألف تلميذ بين صبي وفتاة.

وفي عام 1936 كان ابن باديس أول من أطلق الدعوة إلى عقد المؤتمر الإسلامي الجزائري الذي برز فيه توجه جمعية العلماء نحو المشاركة السياسية، وفيه دعا إلى ضرورة تحديد النظام السياسي للمسلمين في الجزائر. وفي السنة نفسها شارك ابن باديس مع الشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ الطيب

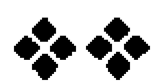
العقبي مع نخبة من السياسيين الجزائريين في الوفد الجزائري الذي زار باريس للتفاوض باسم الشعب الجزائري مع الحكومة الفرنسية، وقد عاد من باريس أكثر إصراراً على الاعتماد على الذات ونبذ جميع الأطروحات التلفيقية التي كانت تقدمها فرنسا.

وقد استمرت مجلة الشهاب تصدر باسمه، إلى جانب منشورات الجمعية – الصراط، السنة، الشريعة وأخيرا البصائر. إلى أن أوقفها ابن باديس بنفسه عشية إعلان الحرب العالمية الثانية لأنه رفض لها أن تكون أداة في يد الإدارة الفرنسية التي وضعت الصحف تحت إشرافها المباشر بموجب قوانين الحرب.

وفي عام 1939 طلبت منه فرنسا أن يبعث برسالة تأييد لفرنسا في دخولها الحرب الأوروبية

الثانية، وبهذه المناسبة قال قولته الشهيرة «لو قالت لي فرنسا قل لا إله إلا الله ما قلتها». فتعطلت نشاطات الجمعية، ولم تمض إلا سنة واحدة لتفقد الجمعية رئيسها أيضاً ويعتقل الكثير من رجالها، ولن تعود إلى النشاط إلا بعد الحرب.

في 16 أفريل 1940 توفي الشيخ عبد الحميد ابن باديس عن عمر يناهز 51 عاما في مسقط رأسه بمدينة قسنطينة، التي اتخذها في حياته مركزا لنشاطه التربوي والإصلاحي والسياسي والصحافي.



مختارات من شعر ابن باديس

الحمد لله ثمّ المجد للعربِ

ألقى الشيخ ابن باديس هذه القصيدة ليلة احتفال جمعية التربية والتعليم الإسلامية بالمولد الشريف – بقسنطينة. نُقلت عن مجلة الشهاب، الجزء 3: المجلد 14، غرة ربيع الأول 1357 هـ، فيفري 1938 م.

الحَمْدُ لله ثمَّ المجْدُ للعَرَبِ

مَن أنجبُوا لبَنِي الإنْسَانَ خَيْرَ نَبِي

ونَشَرُوا مِلّةً في الناسِ عَادلَةً

لا ظُلمَ فيها عَلَى دِينٍ ولا نسَبِ

وبذلوا العِلْمَ مَجّانا لطالِبِهِ

فَنالَ رُغْبَاهُ ذو فَقْرٍ وذو نشَبِ

وحرَّروا العَقْلَ مِنْ جَهْلٍ ومِنْ وَهَمٍ

وحرَّروا الدِّينَ مِنْ غِشٍّ ومِنْ كذِبِ

وحرَّروا النَّاسَ مِنْ رِقٍّ المُلوكِ ومِنْ

رِقِّ القَدَاسَةِ باسْمِ الدِّينِ والكُتُبِ

قَوْمِي هُمُ وبنُو الإنسانِ كُلُّهُمِ

عَشِيرَتي وهُدَى الإسلامِ مُطَّلَبِي

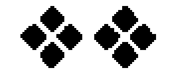
أدْعُو إلى الله لا أَدْعُو إلى أَحَدٍ

وفي رِضَى الله مَا نَرْجُو مِنَ الرَّغَبِ

❖❖

خافقات البنود

اشِهدي يَا سَمَا وَاكْتُبَنْ يا وُجودْ
إنَّنَـــا لِلحمَـــا سَنَكُـونُ الجُنُودْ
فنَزيـحُ البَـــلاَ وَنَفُكُّ الْقيُودْ
ونَنيـلُ الرِّضـا مِنْ وَفَّى بِالعْهُودِ
ونُذيقُ الرَّدَى كُلَّ عاتٍ كَنُودْ
وَيَرَى جيلُنَـــا خَافقَاتِ البُنودْ
ويُرَى نجْمُنَـــا لِلْعُلاَ في صُعودْ
هَكَـذَا هَكَـذَا هَكَـذا سَنَعُودْ
فاشْهَدي يَا سَمَا واكتُبْن يا وُجودْ
إنَّنَـــا للعُلاَ إنَّنَـــا للخُلُودْ



عروبة الجزائر

شَعْبُ الجزائرِ مُسْلِمٌ

وإلى العُروبة يَنْتَسِبْ

مَنْ قَالَ حَادَ عَنْ أصْلِهِ

أو قَالَ مَاتَ فقد كَذبْ

أو رام إدمَاجًا لَهْ

رامَ المُحال مِن الطّلَبْ

يَا نَشْءُ أَنْتَ رجَاؤُنا

وبِكَ الصَّباحُ قَدِ اقْتَرَبْ

خُذْ للحَياةِ سِلاحَهَا

وَخُضِ الخُطوبَ ولا تَهبْ

وارفَعْ مَنارَ العَدْلِ والإ

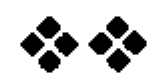
حْسَانِ وَاصْدُمْ من غَصَبْ

وَاقْلَعْ جُذورَ الخَائِنينَ
فَمِنْهُمُ كُلُّ العَطَبْ
وَأذِقْ نُفُوسَ الظَّالِمينَ
السُّمَّ يمزج بالرَّهب
واهْزُزْ نُفوسَ الجَامِدِينَ
فَرُبَّمَا حَيَّ الخَشَبْ
مَنْ كَانَ يَبْغي وَدّنا
فَعَلى الكَرامَة وَالرَّحَبْ
مَنْ كَانَ يَبْغي حَياتَنا
بالنُّورِ خُطَّ وباللَّهَبْ
حتى يَعودَ لِقَوْمِنَا
مِنْ مَجْدِهِم مَا قَدْ ذَهَبْ
وتُرَى الجزائرَ رَجّعتْ
حَقَّ الحَيَاةِ المُسْتَلَبْ

آراء في ابـن بـاديس

«الحقيقة التي لا يختلف فيها اثنان، والشهادة التي تؤديها لوجه الحق حتى رجال الاستعمار، هي أن أول صيحة ارتفعت بحرية الجزائر كانت من لهاة عبد الحميد بن باديس ولسانه، وأن أول صخرة وضعت في أساس نهضة الجزائر بجميع فروعها من علمية وسياسية واجتماعية وأخلاقية إنما وضعتها يداه».

الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

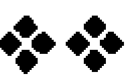


«لقد كان الشيخ عبد الحميد هو الجزائر، فلتجاهد الجزائر الآن أن تكون هي الشيخ باديس».

الشيخ العربي التبسي

«تلقى الإمام عبد الحميد تعاليم الإسلام، وتشرب روح العروبة، فكانت روحه الفلسفية متوجهة نحو تسليط تلك التعاليم وهاتيك الروح على ما بين جنبيه وجنبي عموم الشعب الجزائري من حالة الذهول عن الذات، والانقطاع عن تأثير التعاليم الطاهرة، والروح الإسلامية».

الشيخ الطاهر بن عاشور

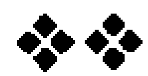


«الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء بالجزائر وباعث النهضة الإسلامية العربية فيها، وقائد الثورة ضد الاستعمار الفرنسي في هذه البلاد العزيزة واحد من العلماء المصلحين والمفكرين الرواد في الوطن العربي الإسلامي».

د. محمد البهي

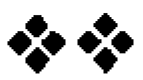
«كان شديد الحملات على الاستعمار، وحاولت الحكومة الفرنسية في الجزائر إغراءه بتوليته رئاسة الأمور الدينية فامتنع، واضطهد وأوذي، وقاطعه إخوة له كانوا من الموظفين، وقاومه أبوه، وهو مستمر في جهاده، عليهم جميعًا سحائب الرحمة والرضوان».

المؤرخ خيرالدين الزركلي



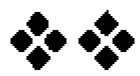
«كان ابن باديس مصلحا اقترن اسمه وأثره بتاريخ هذا البلد في مرحلة سياسية كانت تعده «للثورة» وفي هذه الكلمة من المعاني أكثر مما تعودنا أن نفهم».

المفكر مالك بن نبي



«لقد وضع ابن باديس خطته على أساس مبتكر يتلخص في أن يحاصر فرنسا في رفق وعزم صارم، في الوقت الذي تظن هي فيه أنها تحاصر الجزائر. ولم تفطن فرنسا إلى مهارة هذه الخطة إلا بعد فوات الوقت، فوجدت نفسها محاصرة، بعد أن نحّى ابن باديس أعوانها طائفة بعد أخرى».

د. محمود قاسم



«إن ابن باديس ورجال الجمعية حاربوا التعليم الاستعماري الهادف إلى تحطيم مقومات الشخصية وقطع الطفل الجزائري عن الثقافة العربية الإسلامية، وحاربوا كذلك العقلية الخرافية التي تتنافى مع روح الإسلام».

د. روجيه غارودي



الشيخ عبدالحميد بن باديس

المحتويات

■ **فرسان العروبة، مذكرات الشهيد صلاح الدين الصباغ**

تحقيق وتقديم: سمير السعيدي.

■ **تاريخ الجماعات السريّة**

تأليف: آركون دارول، ترجمة: عبدالهادي عبدالرحمن.

■ **تفاحة قابيل**

تأليف: زكريا شاهين.

■ **ما قبل اللغة.. الجذور السومرية للغة العربية واللغات الأفروآسيوية**

تأليف: عبدالمنعم المحجوب.

■ **أحمد إبراهيم.. هذه عقيدتي**

حوار: وليد الزريبي.

■ **العرب في القرآن**

تأليف: الشيخ عبدالحميد بن باديس.

■ **المثقف العربي والسؤال السياسي**

تأليف: وليد الزريبي.

■ **جسر لأحزان الماء** تاليف: زكريا شاهين.

في اللغة والحضارة (1)

لو قالت لي فرنسا: قل (لا إله إلا الله) ما قلتها.

**

العرب هُيّئوا تاريخيّاً لأجل أن ينهضوا بأعباء الرسالة الإسلامية العالمية، ولأن الله الحكم العدل الذي يضع الأشياء في مواضعها بحكمة، ويأمرنا أن ننزل الناس منازلهم في شريعته، ما كان ليجعل هذه الرسالة العظيمة لغير أمة عظيمة.

**

كوّن رسول الإنسانية ورجل القومية العربية أمته هذا التكوين المحكم العظيم، ووجّهها لتقوم للإسلام والبشرية بذلك العمل الجليل، فلم يكوّنها لتستولي على الأمم، ولكن لتنقذهم من سلطة المسؤولين باسم الملك أو باسم الدين. وبالجملة: لم يكوّنهم لأنفسهم بل كوّنهم للبشرية جمعاء.

ابن باديس



تانيت

الثمن: 2.5 د